عبدالفتاح كيليطو: الحكاية كنز والتأويل فعل اكتشاف

«مَن نبحث عنه بعيدا يقطن قريبا منّا» ولعبة التماثلات والتراسلات

علاقــة الناقد المغربي عبدالفتاح كيليطو بالتراث، علاقة وثيقة وممتدة، فهو دائم البحث والتنقيب في التراث منذ دراساته عن المقامات وألف ليلة وليلة، والجاحظ وغيرهم. يمكن وصف ما يقدّمه بأنه مشــروع متداخل وممتد في آن واحد، يروم إلى استكشــاف الرؤى المغايــرة للنصوص القديمة، عبر قراءات طبقية، تتداخل مع نصوص من آداب إنسانية مختلفة.

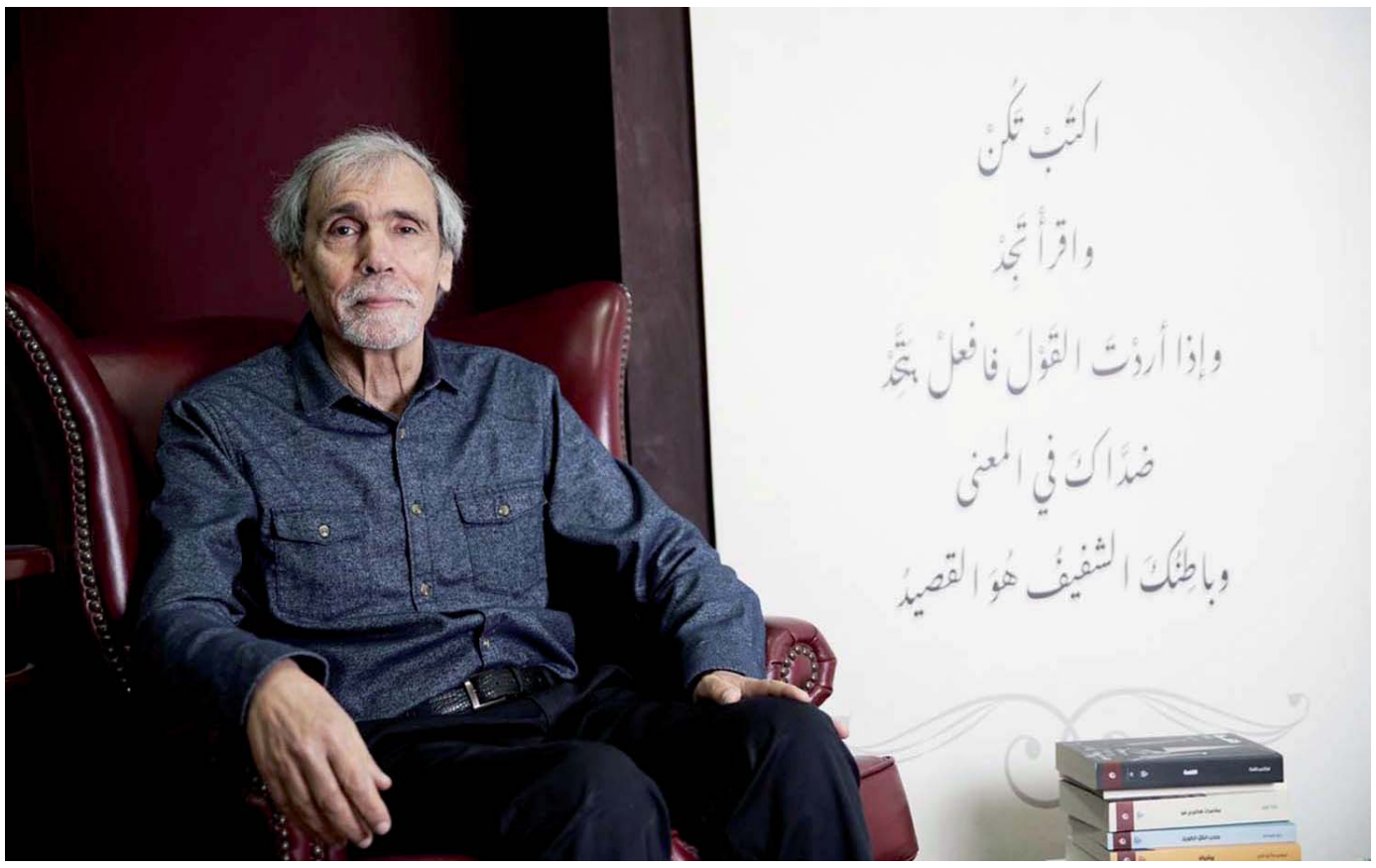

عبد الفتاح كيليطو يسعى للبحث عن المؤلف المجهول

ممدوح فراج النابي
كاتب مصري

في كتابــه الأحــدث، الذي يســتعير عنوانه من يوميات كافكا "من نبحث عنه بعيدا يقطن قريبا منا" والصادر بترجمة إســماعيل أزيات، عن دار توبقال للنشر 2019، يعــود كيليطو من جديد إلى مؤلَّفه الأثير "ألف ليلــة وليلة" الذي تناوله في كتابيه "أنبئُوني بالرؤيا" و"بحبر خفي" عبر مسار البحث في الهوامش، واقتفاء الأثر والظــلال لتفكيك حكايــات الليالي مقدِّما قراءات هي الأخرى جديدة، كاشفا من خلالها عن المعاني المكتنزة في داخل الحكايــات القديمة، والأنســاق المضمرة ومــا تخلقــه مــن امتــدادات وتماثلات مع نصــوص دينية وتاريخيــة وثقافية. وكأنها تشــير، بهذه الــدلالات المتولدة، إلى لا نهائية من الليالي، أو "ليال بلا عدّ لا تحصــى" كما يقــول بورخيس، وربما هو سرّ خلودها وديمومتهــا، فالمعاني الجديــدة تتوالــد، على نحو مــا تتوالد حكايات ألف ليلة وليلة.

لعبة التأويلات

يأخذنــا كيليطــو فــي لعبــة مــن التأويلات لا تبعُد عن المعنى المقصود من حكاية هذا البغــدادي في "حكاية إفلاس رجل من بغداد"، الذي ارتحل إلى القاهرة استجابة لرؤية أرشدته إلى أن رزقه في القاهرة، وما أن يصــل إليها حتى يغلبه النوم في أحد المســاجد، والذي لحســن حظه وليس لسوء حظه، كما ظن في بادئ الأمــر، يتخذه اللصوص وســيلة للعبور إلى بيت مجاور لسرقته، وعندما تصل شــرطة الوالــي للقبض علــى اللصوص يكونون قــد رحلوا عن المــكان، ولم يبقَ في المكان غير البغــدادي الذي هدّه تعب الســفر فنام، فيُقتاد إلى الحبس، وهناك يسأله الوالي عن حكايته، فيسخر الوالي منه.

فــي الحقيقة لا يتوقــف كيليطو عند هذه الحكايــة وهو يفــكك العلاقات بين الأطــراف (الحالــم الأول- البغــدادي، والحالــم الثانــي- الوالي)، والأســباب (الانصياع للرؤية في حالة الأول ورفضها فــي حالة الثاني)، والنتائج (العثور على الكنز بالنســبة إلــى الحالــم الأول)، بل يقدّم تقاطعات مع قراءات متعددة تكشف لنــا عن المنهج الــذي يعتمده كيليطو في حفرياته عن التراث.

وكأنــه يُفصــح عنــه هدفــه الذي لا يتوقف عنــد الحكاية في أصلهــا القار، بــل يتخذها نافــذة، لينفذ إلــى حكايات تتشــابك بعلاقــات التشــابه، تتخذ من السّــفر والرحلة بحثا عن الكنز بنيةً لها، ليفكك ويعيد صياغة حكاية الرجل المُفلس وفق سياقات جديدة، وكأنه يسعى لقراءة الليالي وفق مقاربات النصوص الغربية في تأكيــد أن الآداب الإنســانية تُفسّــر بعضها بعضا.

فمــع أن أدوات المنهــج التفكيكي هــي ظاهــرة فــي التحليــل، إلا أن كثرة التقاطعات مع نصوص أخرى، من أزمنة مختلفة وإن كانت تتشابه في السياقات، بدءا من القــرآن الكريم، والكتاب المقدس ومدونــات تاريخيــة كـ"لطائــف أخبــار الأول من تصــرف في مصر مــن الدول" للإســحاقي، ونصــوص حديثــة كــدون كيشــوت وحكاية الصياد عند نيوكولاي دلفيدســكو، وبلــزاك في قصــة أوجيني غراندي، وجاك القدري وســيده وغيرها؛ تكشــف عن حضور النقــد الثقافي، بهذه التماثلات والتوزازيــات بين النصوص، حيث يلتفت إلى أشياء قد لا تلفت القارئ العــادي، وهذه الإشــارات يســتطيع أن يقيــم من خلالهــا علاقــات وروابط بين النصوص.

إضافة إلى تقاطعه مع نص بورخيس الذي قــام بالتلاعب في النــص، فأعطى للحالــم اســما علــى غيــر طبيعتــه في الليالي، وهو ما دفع بكيليطو إلى تأويل هذا إلى رغبة بورخيس من اختيار اســم محمد لشخصية الحالم، وهو الاسم قليل الشــيوع في الليالي، هل لتوكيد الطابع التبشــيري أو التنبؤي للحلم؟ هل كان يرمي إلى نــص المعراج، الرحلــة الليلة وارتقاء النبي محمد إلى السماء؟

الليالي في مرآة الآخر

لا يقــرأ كيليطو الحكاية في صورتها الليالية فقط، وإنما يعرج إلى الاختلافات التــي طــرأت علــى الحكايــة فــي رحلة الترجمــة، بــدءا مــن العنوان في تســع ترجمــات مختلفــة ما بــين "الحلم الذي تحقــق" لإدوارد وليام لــين، و"حلم" عند غوســتاف فايــل، و"الحلــم بالكنز" عند بورخيس و"حكايــة الحالمين" عند جمال الدين بن الشيخ، وأندري ميكيل، وأيضا الإضافات التي لحقــت بنية القصة على نحو ما فعل بورخيــس بوصف صاحب الصــوت الهاتف هكذا بأنــه "رجل تقطر مــن فمه قطعــة ذهبيــة"، إلــى إضافته تفصيلــة غير موجودة في النص العربي تتمثل في أن الحالم الأول المفلس فقدَ كل ثرواته "باستثناء بيت أبيه" أو إشــارته إلى شجرة التين بالقــرب مــن عين المــاء في البيت.

معرفة كيليطو الدقيقة بــكل ترجمــات الليالــي، سـهّلت عليــه اســتلماح الفروق بدقة، بين النسخ، فمثــلا يشــير إلــى أن الإبــرة العملاقــة التي ستفقأ عين السيكلوب هي عــين وحيــدة فــي الأودية وبالمثل في السندباد، لكنها ستتحول إلى عينين في نســخ أخــرى. وبالمثل يتحوّل اسم الســندباد البحري في ترجمة غالان إلى هندباد.

لا تُفصــل الحكايــات عــن دلالاتهــا أو عــن القيــم التــي تصل إلــى المتلقي، فمــن حكايــة الحالــم الأول المفلس الذي رحــل دون أن يبيع بيته فــي بغداد وهو "بحوش وجنينة وفســقيّة" يستنتج أنه ينبغي الافتراق ليتحقق الاجتماع، وكذلك ينبغي الخســارة ليتحقق الربح، والأهم ينبغــي التيه ليتحقق اللقــاء. وفي ظني أن هــذه الفكــرة مبنيّ عليهــا الكثير من حكايات الليالي نفســها، فالتيه شرط من شروط اللقاء.

تستحضر حكاية الحالمين خاصة السّفر حكاية السندباد وتنقلاته، لكن هذا التنقل يكون سببا لهلاك الســندباد، عندما يخبره الملك "بأنك صرت واحدا منا"، وهو ما كان مقدمة لإجباره على الزواج، الذي يكتشف أن فيه هلاكه، بســبب عاداتهم الغريبة، بــأن يدفــن الرجل حيــا إذا ماتت زوجتــه والعكــس بالنســبة إلــى الزوجة، فهما شريكان "في الحياة وفي الممــات"، وما أن يســعى للاحتيال يذكــر أن له زوجة في بلــده الأصلي، كما ذكــر أنطوان غالان فــي ترجمته، ومع أن هذا غير ســائغ لدى قرّاء غالان، فاضطر إلى الإشــارة إلى أن "السندباد محمديًا، والمحمديون لهم نساء عديدات"، وبالمثل تستدعي الأوديســة ورحلة أوديسيوس الذي يتحرق شــوقا لرؤيــة إيثاكا وبعد ســنوات مــن التيهــان يعود إلــى أرض أبائه. وبالمثل تتوازي رحلة السندباد مع روبنسون كروز.

فرحلــة الســندباد الأخيــرة التــي ترجمها جمال الدين بن الشــيخ وأندريه ميكيل باسم "آخر بحار الدنيا" تستغرق وحدها ســبعا وعشــرين ســنة، في حين السفرات الست السابقة لم تحدد مدتها، مقابــل أن مقدار مكوث روبنســون كروز في جزيرته يقدر بثمان وعشــرين ســنة. ويشترك كروز والســندباد في أن كليهما تمنّى العودة ولقاء أهله.

التماثــلات بــين الآداب الأجنبيــة وحكايــات الليالي، لا تتوقــف عند كاتب واحد أو جنســية معينــة، بل هي ممتدة وتتكاثر باطّراد، وكأن النصوص جميعها على اختلافها مستمدة من مصدر واحد. فجلجامــش العظيم الرجــل الذي لم يكن يريــد أن يمــوت مــا أن تمــوت رفيقتــه إيكنــدو، وجــد نفســه يواجــه الطبيعة الحتمية لفنائه الشــخصي، فانسلخ من ثيابه الملكية، مؤقتا، وكســا جسمه بجلد الوحوش، وهام في الصحاري والبراري.

هــذا التبدل يــراه كيليطــو حاضرا في افتتاحية ألف ليلــة وليلة حيث الملك شــهريار بعد أن اكتشــف خيانة زوجته، يقول لأخيه الذي عاش تجربة مماثلة "قم بنا نســافر إلى حال ســبيلنا" ففي نظره الموت خير من حياتنــا، فأقبل على حياة التطواف والتيهان، عازما أن يسبح "في حبّ الله"، وإن كان ثمة فوارق فجلجماش يخشــى الموت أمــا شــهريار فيتوق إلى الاندثار. وبالمثل أصداء حكاية جلجماش المتمثــل فــي الخلــود تتردد فــي حكاية بُلُوقِيا في الليالي؟

محاولــة كيليطــو لتفكيك حكايات الليالــي واســتحضار المتماهــي معهــا من الآداب الإنســانية، أشــبه بالســعي للبحــث عن المؤلف المجهــول الذي صاغ الكتــاب، الذي جعل بورخيــس وهو في ســن الســادس والثمانين يتعلم العربية لقراءتــه، حتى غــدت أمنيــة الكتاب بأن تكون الليالي "الكتاب الذي كانوا يتمنّون كتابتــه" ليســت أمنية فرد بقــدر ما هي أمنيــة جماعة زمرة" لكن مــن هم؟ يقارن كيليطــو بين حــال العرب فــي العصور الوســيطة، حيث لم يكونوا مهتمين بهذا التــراث الفريد، بل كانوا يعتبرونه كتاب هذر، في حين أقبل عليه الغرب وترجموه بل إن بلزاك ينعت الكوميديا الإنســانية بـ"ألف ليلة وليلة الغرب" في إشــارة إلى الاعتراف بقيمة الكتاب.

الإنسانية كونية أو لا تكون

الحديث عن الإنســانية في المطلق شيء، وحضورها في الواقع شيء آخر، فما من شــعب لا يحس أن البشرية واحدة، ذات مصير واحد، ولكنه غالبا ما يسبق على تلك الكونية مصالحه، فيفضل الانطواء على نفسه استئثارا بخيراته، وصونا لهويته. هنا قراءة لكتاب جديد للمفكر الفرنسي فرنسيس وولف يعالج بعمق هذه المسألة.

أبو بكر العيادي
كاتب تونسي

بعد كتاب "إنسانيتنا، من أرسطو إلى علوم الخلايــا العصبية" الذي اقترح فيه تاريخا نقديا للمصطلحات الفلسفية عبر أربع مراحل كبــرى تحتوي كل منها على وجه علمــي وقفًا أخلاقي، ثــم كتاب ثان عنوانه "ثــلاث طوباويات معاصرة"، هي "ما بعد الأنســنة"، وما قبل الأنســنة أي النزعــة الحيوانية، وما فوق الأنســنة أو "الكوســموبوليتية"، القادرة وحدها على جعل الإنســانية قيمة مطلقة، صدر كتاب جديد للفيلســوف الفرنســي فرنســيس وولف بعنوان "دفاعا عن الكوني"، كآخر جزء لثلاثيته حول الإنسانية.

هــذا الكتاب يكمّل مــا بدأه وولف في الجزأيــن الســابقين، ويقــوم على ثلاث فرضيــات: الأولــى أن الإنســانية هــي مجموعــة إيثيقــة؛ والثانيــة أنها تمتلك قيمة فــي ذاتها، هــي مصــدر كل القيم؛ والثالثة أن كل البشر متساوون من حيث القيمة. ما يعني أن للكائن البشري حرمة، وأن الأعمال البشــرية من تاريخ ومعارف وتقنيــات وفنون جديــرة بالاحترام. هذه الأفكار عن الإنســانية والأنســنة مرتبطة بأفكار أخرى عن العقل والعلم والمساواة والأخــلاق والفلســفة، وعمّــا يوحدهــا جميعا أي الكونيّ.

بيد أن هذه الأفــكار تمر اليوم بأزمة، فمــن المفارقات العجيبة أن الناس واعون اليــوم أكثــر مــن أي وقت مضــى بأنهم يشــكلون إنســانية واحدة، لا سيما بعد تطور وســائل النقل والاتصال وانتشــار الإنترنــت التي ألغت المســافات، وجعلت ســكان المعمورة يشــعرون بأن مصيرهم واحد، وأنهم يواجهون المخاطر نفســها حيثما كانــوا، ولكنهم في الوقت نفســه يميلــون إلــى الانطــواء داخــل قومية وهويــات ضيقــة، ويمارســون التشــدد الديني ويكرســون معــاداة الأجانب، أي أنهــم يدركــون أنهم مــن طينــة واحدة، ويفضّلــون رغم ذلك العيــش مع أمثالهم دون ســواهم، ولو باســتنباط اختلافات متجددة، وهويات لا حصر لها.

يفسر وولف هذه المفارقة بأن الشعوب والمجتمعــات والجماعات إذ تحس بأنها خاضعــة لضغــط تاريخــي للإنســانية المعولمــة تســعى إلــى تحديــد نفســها باختلافاتها الصغرى، أي أنها تخشى أن تتحلل في كليانية مقولبة تلتصق بمن هم أقرب إليها ثقافيــا وحضاريا وتاريخيا. ولكــن لئن صــح هذا الرأي علــى العولمة الاقتصادية والثقافية، فإنه لا ينطبق على أزمة الأخلاق الإنسانية، لأن هذه الكونية الأخلاقيــة يمكــن أن تكون خيــر ضمان للتنــوع الثقافي، مثلما كانــت العلمانية ضمانة لظروف الحرية الدينية. ما يعني أن الأزمة الأخلاقية أعمق بكثير.

لــو قلّبنــا النظــر ناحيــة اليمين أو اليســار لألفينا عودة النقــد القديم الذي يقول إن الكونيّ في النهاية ليس ســوى حق الأقوى، فيســوّى حينا بالبطريركية (كل الرجــال ولكــن ليــس كل النســاء) وحينــا بالعــرق الأبيــض (كل البشــر ولكن البيض وحدهــم والذكور تحديدا)، وحينــا آخــر بالمركزيــة الأوروبيــة (كل البشــر، مــن الغربيــين دون غيرهــم) أو المركزية الأنثروبولوجية (البشر، من دون الحيوانــات)، أي أن الكونيّ حســب هذا الزعم يهمــل الخصوصيات والاختلافات والقوميات والثقافات والإثنيات وديانات المستضعفين وحتى العرقيات التي عادت هي أيضا إلى العودة بشراسة.

وفــي رأي وولــف أن ضعــف مفهوم الإنســانية أبســتيمولوجي بالدرجــة الأولــى، فتحديــد الكائن البشــري يبدو مهــددا بتعميــم المناهــج والنظريــات الطبيعية فــي العلوم الإنســانية، مثلما تبــدو حدود الإنســانية مــع الروبوتات والحيوانــات فضفاضــة، يوهــم دعاتها أن اختلاف الإنســان معهــا هو اختلاف بالدرجــة لا بالنــوع، وكأنهــم يريــدون فرض فكرة التواصل بين الإنسان والآلة، متجاهلين أن الآلة مهما اتسمت بالذكاء لا يمكــن أن تعبــر عــن مظاهر الوعي.

والحقيقة أن أوجه الضعف تلك، ســواء أكانت سياســية أو أخلاقيــة أو فلســفية أو علمية، تشكل في موقفها من الإنســانية أعــراض مرض عميق، حتــى لكأن الكوني، وكذلــك الأنســنة، فقدا كل مبــرر تاريخي. ففي عصر الأنوار، كان لإعلان حقوق الإنســان والمواطن جانبُ أيديولوجيــا فرديــة عــن حقــوق ذاتية خاصة بأوروبــا والولايــات المتحدة في القرن الثامن عشر، وجانبُ مشروع كونيّ عن تفتح الإنسانية عبر اكتساب الحريات الفردية. غير أن تلك الحقوق لا تستند إلى واقع عينيّ، كأن نلاحظ أن البشر يولدون ويظلــون أحــرارا ومتســاوين (حتى في الحقوق) لأن ما نشــهده هو العكس، فهم يولدون ويبقون غير متساوين في الواقع وفي الحقوق. والحقيقة أن تلك الإعلانات كان يــراد منهــا خلــق مجموعــة قادرة علــى تحقيق تلك المســاواة في الحقوق، ولكــن كان لا بد من أســاس لتحقيق تلك المســاواة. ففي القرن الثامن عشــر، كان الــدور منوطا في البدايــة بالذات العليا، خالــق كل البشــر، كمــا ورد فــي إعلان اســتقلال الولايات المتحدة عام 1776، ثم تلتــه الطبيعة كما جاء فــي إعلان 1789، الذي حدّد "الحقوق الطبيعية والمقدســة والتــي لا تقبل التنــازل"، ما يعني أن كل البشر متســاوون بالطبيعة، والحال أن الواقــع عكــس ذلــك. هاتــان الفكرتــان، فكــرة ذات عليــا عليمــة وفكــرة طبيعــة مســاوية صارتــا هشــتين فــي عصر مــا بعد الحداثة. فالذيــن خرجوا من الديــن لا يؤمنــون لا بهذه ولا بتلك، والذين لــم يخرجوا منه يميلون إلى اعتبار الرب ضمانا لخصوصيتهم، شــاهدهم على ذلك الحقيقــة المطلقة للنصوص المقدسة التي يلتزمون بتعاليمها.

وفــي رأي الكاتــب أن ذلــك هو مــا حدا بمنظمــة الأمم المتحــدة إلى عــدم الأخذ بالفكرتــين فــي إعــلان 1948، مــا حــرم رغبتها المشــروعة في إرساء الكونية من أساس يضمنها، ومن مصدر مسلح بقوة بالقانون لفرضها، إذ ظل الإعلان خاضعا لتطور العلاقات الدولية وهشاشة النظام القانوني المنبثق عنها.

ومــن ثَمّ يــرى وولــف أن الكونية لا يمكــن أن تبنــى على رؤيــة طبيعية، ولا بدّ من تســليح الأنســنة بقاعدة فلسفية، عقلانية صــرف، حتى تضمــن كونيّتها، وهو ما ينهض به هذا الكتاب.

فرنسيس وولف: كل البشر متساوون في القيمة